الرجل الصامت

عن الروسية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

كان فى فندق القرية ضيوف كثيرون لا أعرف معظمهم ، وانقضى النهار وجانب من الليل ونحن فى هرج وضوضاء ، فلما بلغت الساعة الثانية بعد منتصف الليل بدأنا نفكر فى النوم فانصرف من انصرف وبقى فى الفندق ثمانية . ولم يكن خالياً من غرفه غير أربع ، فقالت لى صاحبة الفندق : إن هذا الضيف سيكون شريكا لك فى غرفتك واسمه (ماكسيم سيمونوفتش) وأشارت إلى رجل قصير القامة ضئيل الجسم فقلت : لا بأس وإن كنت أوثر أن تكون لى غرفة وحدى

تقدم نحوى سيمون وقال : أترى مانعاً من مشاركتى إياك ؟ . . .

فقلت : كلا وماذا عسى أن يكون المانع ؟ . فقال إننى قليل الكلام وأخشى أن يكون من عاداتك قبل النوم أن تتحدث فلا تسر برفيق صامت مثلى

قلت : وأنا أيضاً أحب الصمت . فقال : إذن فلن يؤذيك صمتى الطويل

ودخلنا غرفة النوم فقال : فى الناس من لا يستطيعون الصبر على صاحب صامت ، ولذلك سألتك حين رأيتك هل تحب الكلام فإن كثيرين ممن عرفونى أبغضونى لأننى قلما أتكلم

ابتسمت وقلت له : لا يشغل بالك هذا الخاطر . فقال : شكراً لك . وخلع إحدى حذائيه وأمسكها بيده . ثم أطرق لحظة وقال : لقد حدثت لى حوادث بسبب الصمت أذكر لك منها : أننى سكنت فى عهد شبابى فى غرفة واحدة مع صديق لى اسمه أورلوف وكان ينقضى اليوم واليومان وأنا صامت ؛ فتضجر وصار يسخر منى ويتهمنى بأننى سىء الضمير ، وسألنى : هل أقسمت لا أتكلم ؟ فقلت : كلا . فقال : إذن تكلم . فقلت : عن أى شىء ؟

وانقضى يومان وأنا صامت ، فأمسك زجاجة وقال : تكلم وإلا ضربتك بها فى رأسك

قلت : إن ذلك لن يكون جميلاً منك لو فعلته

ومضت ثلاثة أيام ولم أتكلم . ودخلنا لنبدل ثيابنا كما نفعل الآن فخلع حذاءه ورمانى به وقال : أنت كالميت لا تنطق ولا تتحرك ، وأن الحياة معك كالحياة بين المقابر ؛ فسأترك لك الغرفة غداً . هذا ما قاله ولكن هل تعرف ماذا فعل ؟

قلت : كلا

فضحك سيمون واستمر يقول : والله لقد خرج ... خرج من الغرفة ولم يعد إليها وقد كان فى حالة عصبية ... ولكن هل تعرف أن فتاة غضة الشباب موفورة الصحة تنتابها هذه الحالة ؟ لقد كانت لى خطيبة أحبها وكانت تحبنى وقالت إنها أحبتنى لأنى رجل جد وعمل ولأننى مفكر غير ثرثار . لقد قالت ذلك فى أول عهدى بها ولكن لما قدم العهد بيننا سألتنى لماذا أنا كثير الصمت ؟ فقلت ولماذا أتكلم ؟ فقالت أليس لديك ما تقول ؟ قل ما فعلته اليوم أو ما رأيته . فقلت لها باختصار لقد كنت فى مكتبى ثم تغديت وجئت لزيارتك . فقالت : إنها تخافنى لأنى قليل الكلام فقلت : هذه طريقتى فأحبينى كما أنا ...

وبعد أيام زرتها فوجدت معها شاباً كثير الكلام ، فظل يحادثها بغير انقطاع ، وكان كل حديثه تافهاً ، وإننى لأعجب له كيف كان يؤاتيه هذا الكلام . لقد كان يسألها هل تعرف الرقص ، ثم يقص عليها خبراً رآه ويسألها عن معنى إهدائها إليه وردة صفراء ... كلام كثير لا أعرف من أين يخلقه وهل لإهداء وردة صفراء أى معنى ؟ وكانت تصغى إليه ... إلى أحاديثه التافهة ... إلى أسئلته ... وكانت تجيبه ... وكنت أراها ولا أتكلم . ثم أخذا يتهامسان ويبتسمان وهما ينظران إلى . وبقيت صامتاً ثم تركت لهما المكان ... وبعد أيام زرتها فجاء هذا الشاب وقال لى : ما الذى تفعله هنا ! اذهب وإلا قتلتك فقلت : جئت

لأزور ماريا بتروفنا فقال : اذهب أيها الوغد

وأردت إقناعه بأنه مخطئ ولكنني رأيت الفتاة تضحك وتقول : اذهب فإنني لا أحبك لأنك قليل الكلام ! آه ما أحمق هذه الفتاة !

لما بلغ سيمون هذا الحد من حديثه كنت شعرت بحاجة شديدة للنوم ، فابتسمت وقلت : قصة جميلة ! أسعدت مساء

فقال : سعد مساؤك وطاب نومك . إن الرجال خير من النساء ، فهم يزنون الأمور بميزان المنطق ، وأما النساء فهن غاية في الغرابة . إنني أعترف لك بأنني أحببت امرأة متزوجة وأحبتني في أول الأمر ، ولكنها بعد ثلاثة أيام فقط زهدت فيّ واحتقرتني وقالت : لقد قبّلتُ قبلك كثيراً من الرجال ، ولكنني لم أقبّل غيرك جثة هامدة ... أنت رجل مضحك فاذهب من أمامي ... لقد قالت لي ذلك ؛ فلما لم أذهب ، خرجت هي من تلك الغرفة ، وقالت لزوجها بنفسها : إن في المنزل رجلاً غريباً ... هل أنت سامع ؟

فقلت له وأنا بين النوم واليقظة : إنني أريد أن أنام ، فنحن في منتصف الساعة الرابعة ، فقال : أنحن في منتصف الساعة الرابعة ؟ لقد آن وقت النوم

وخلع حذاءه الثاني وقال : لقد كنت مسافراً مع أحد الأعيان ، فبقيت كعادتي صامتاً في الطريق

عند ذلك أغمضت عيني ودفنت صوتي بالغطيط لكي يحسبني نائماً فيسكت ، ولكنه استمر يقول : فسألني عن الجهة التي أسافر إليها ؛ فقلت له : نعم ... هل نمت أيها الشاب ؟ هل أنت سامع ؟ أنائم هو ؟ أهو غير نائم ؟ ها ها ! لقد كان الشاب الذي سكنت معه يفعل مثل ذلك ... لقد كان ينام ساعة يضع رأسه على الوسادة ... إن الناس لا يحبون كلامي ... ها ها !

فرفعت رأسي وقلت له بلهجة المتهكم :

— لقد قلت لي إنك رجل صامت ، وأنا الآن أشك فيما تدعيه

فقال : إنني أتكلم عن حوادث جرها حب السكوت . ومن تلك الحوادث ، أنني ذهبت مرة لأعترف للقسيس فسألني :

— أي خطيئة ارتكبتها ؟ فقلت : خطايا كثيرة

فقال : قلها . قلت : كل الخطايا

فسكت القسيس وسكت أنا

فقلت له بصوت الغضب وقد جلست على الفراش :

— كلما زدت في حديثك عن الحوادث المؤيدة لحبك للصمت زاد في نفسي اليقين بأنك كاذب !

فقال : لماذا ؟ هل في حديثي ما يبعث على الشك في حبي للصمت ؟ إن حبي للصمت قد آذاني كثيراً ، فقد كنت مرة بالمكتب ، فجاء رئيسي وسألني : هل لدي أخبار ؟ فقلت : كلا ، فقال : ما معنى قولك كلا ؟

قلت : إنني نائم ، ليلتك سعيدة ! ليلتك سعيدة !

فقال سيمون : ليلتك سعيدة ، وقد قلت له إنني لا أعلم شيئاً من الأخبار ، فقال : هذا جواب غير مناسب ؛ فقلت : وبأي جواب أجيبك ؟

غلبني النعاس فنمت نوماً عميقاً ، ولما استيقظت في الصباح سمعت صوتاً يجافيني ، ونظرت إلى سيمون فوجدته يقول :

— وقد طلبت مني زوجتي الطلاق لأنني صامت ، وهي تريد إنساناً لا جماداً ؛ فقلت لها : يا عزيزتي ليدا وعن أي شيء أتكلم ؟

عبد اللطيف النشار

ثمن عدد الرسالة الممتاز ٢ قرشان

الأنصار

مجلة الثقافة الاسلامية

ترسل الاشتراكات في مجلة « الأنصار » بعنوان « الرسالة » وتطلب الأعداد من دار « الرسالة » ومن مكتبة النهضة المصرية بشارع عدلي وشارع الدابغ وفروعها بالجامعة . وثمن العدد قرش صاغ

الاشتراك السنوي خمسون قرشاً

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)